الجواب الصحيح لجبرية الدحيح

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله،

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)) [آل عمران : 102] ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)) [النساء : 1] ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)) [الأحزاب : 70-71]

أما بعد، فقد طلب مني أخي المفضال الشيخ محمد سميح أبو عائش وفقه الله، أن أكتب ردا على ثلاث حلقات للمدعو "أحمد الغندور" من برنامجه الموسوم "بالدحيح"، تناول فيها الرجل مسألة القدر والجبر، تحت دعوى "تسهيل العلوم" (زعموا)، وأبان فيها عن نحلة خبيثة من نحل الدهرية الطبيعيين المعاصرين يقال لها الحتمية السببية Causal Determinism، وهي ذلك المذهب الذي يزعم القائلون به أن حرية الإرادة في الإنسان ليست إلا وهما سيكولوجيا، بالنظر إلى كونها (أي الإرادة البشرية) وجميع ما يترتب عليها من أفعال البشر، متولدة تولدا وجوبيا عن أسباب سابقة عليها (وهي عندهم أسباب طبيعية محضة Physical) تعللها تعليلا تاما. وهذا المذهب يقابله عند الدهرية والفلاسفة القول بأن حادث انقداح الإرادة في النفس البشرية لا تسبقه أسباب متقدمة عليه على الإطلاق، وهذا يقال له اللاحتمي Indeterminism

وكما ترى فإن المذهب الأول ينتهي إلى الجبرية المحضة، ولكنه لا ينتهي إليها من نفس الطريق التي سلكها جبرية أهل القبلة. فإن جبرية أهل القبلة لما رأوا القدرية من المعتزلة وغيرهم يخرجون أفعال العباد من خلق الله تعالى بدعوى أن العدل الإلهي لا يحصل إلا بهذا، أجابوهم بتغيير معنى فعل العبد نفسه، فقالوا إنه لا يقع شيء في العالم إلا أن يكون من "فعل" رب العالمين، فلا فعل للعبد إلا أن يكون فعلا للرب على الحقيقة، إذ لا فاعل سواه، فهو فاعل الخير وهو فاعل الشر، ولا يكون ظالما عندهم بفعله الشر لأنه إنما يتصرف في ملكه، ولا تأثير لإرادات العباد فيما ينسب إليهم من الأفعال، لأنها فعله هو على الحقيقة! فإذا ارتفع معنى الفاعلية عن البشر ونقل إلى

الرب، كان العبد مجبورا على ما يبدو وكأنه أفعاله، مع أنه ليس هو الفاعل، وإذن يرد السؤال: "كيف يؤاخذ العبد على ما ليس من فعله"؟ !

وأما الدهرية الحتمانيون المعاصرون فانتهوا إلى الجبر من جهة أن أفعال البشر ليست هي أفعالهم كما يتوهمون، وإنما هي أفعال القانون الطبيعي الذي رتبها على أسبابها ترتيبا حتميا! فأنت عندما تقعد على مقعد – مثلا - فإنما ينشأ حادث القعود عن عمل جملة كبيرة من القوانين الطبيعية في داخل جسدك (بيولوجيا وفسيولوجيا وبيوكيميائيا وبيوفيزيائيا .. إلخ) وخارجه (فيزيائيا)، وعن شروط سببية تحققت وجوبا وموانع سببية انتفت وجوبا، كلها عندهم محصورة في عمل القانون الطبيعي وأسبابه، وإذن فالنظام الطبيعي أو "الطبيعة" عندهم هي التي أقعدتك، وخلقت وهم إرادة القعود في نفسك، لا أنك أنت الذي أردت القعود وفعلته. فآل قولهم إلى الزعم بأن مجرد تولد الإرادة والفعل البشري عن أسباب سابقة عليهما، هذا ينفي حقيقة كون الإنسان فاعلا مختارا! قالوا: إذا كان جميع ما في الحاضر من الحوادث قد تولد عن جميع ما في الماضي من الحوادث، تولدا واجبا، بما في ذلك إرادة الإنسان التي تكون في نفسه، فلا حقيقة لفعل الإنسان إذن، وإنما هي الطبيعية تفعل كل شيء! أي أنهم نفوا التأثير السببي في الأشياء عن فعل الإنسان وجعلوه للطبيعة التي هو جزء منها، فأسقطوا معنى الفاعلية البشرية بذلك، كما نفت جبرية أهل القبلة التأثير السببي عن الإنسان من قبل، لينسبوه إلى رب العالمين وحده!

والحق الذي عليه أهل السنة هو إثبات الطبائع في الأشياء وإثبات الأسباب والمتولدات السببية والسنن السببية في خلق الله تعالى، وإثبات تأثير السبب في مسببه على الحقيقة (والقرآن طافح بباء السببية كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى)، وإثبات فعل الإنسان الناشئ عن إرادته على الحقيقة، وإثبات تأثير الإنسان في مفعولاته تأثيرا حقيقيا، وأن الله تعالى مع ذلك هو خالق الإنسان وإرادته في نفسه وخالق أفعاله (القدرة على الفعل والفعل نفسه)، لا أنه هو فاعلها سبحانه، كما في قوله تعالى: ((وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)) [الصافات : 96] وقوله: ((وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)) [التكوير : 29] ، وهو كذلك خالق ما يتقدمها من أسباب وما يتولد عنها من مسببات، وهو خالق الأثر والمؤثر والمتأثر، كل ذلك مخلوق لله تعالى، فلا يقع في ملكه شيء إلا بخلقه، ولا يلزم عن شيء من ذلك عند أهل السنة انتفاء معنى الاختيار الحر والإرادة الحرة في الإنسان، فإنه ما من عاقل إلا يعلم من نفسه متى كان مكرها أنه مكره، ومتى كان مختارا أنه صاحب اختيار، فلا يشتبه عند العاقل الفعل

الناشئ عن إرادة حرة بالفعل الناشئ عن جبر أو إكراه! هذا هو معنى حرية الإرادة عند أهل السنة، وهو المعنى البدهي الذي لا يتعارض مع حقيقة كون الإرادات والأفعال البشرية مسبوقة بما لا يحصيه إلا الله تعالى من الأسباب المخلوقة، وصولا إلى إرادته سبحانه بالغيب. فالله تعالى يخلق أفعال العباد بأسبابها، ويخلق في أنفسهم ما حقيقته أنه إرادتهم الحرة، التي لا تشتبه عندهم بالجبر أو الإكراه! فإذا فهم هذا حق الفهم، انتدفعت شبهة الجبرية المتقدمين والجبرية الطبيعيين على السواء.

والواقع أن القول بالحتمية السببية (أو الجبرية المادية كما وجدت بعض الإخوة يسمونها)، ليس هو الخيار الوحيد لدى الدهرية الطبيعيين، بل وليس هو الخيار الأثير لديهم، فهم لا يرون أن القول بالجبرية يفتح لأحدهم مخرجا سهلا من المسؤولية الأخلاقية كما قد يتوهمه البعض. وأنت ترى سام هاريس، على غلوه الشديد في إثبات تلك الحتمية، إلا أنه مع ذلك لم يزل يؤلف الكتب داعيا الناس لاتخاذ العلم الطبيعي أساسا للمعيارية الأخلاقية الموضوعية، ورافعا عقيرته في كل مناسبة بمطالبة الساسة بممارسة أشد درجات الغلظة في محاسبة "المتطرفين" من أهل الملل وفي التضييق عليهم. فصحيح إن أصحاب مذهب الحتمية السببية يلزمهم إسقاط المسؤولية الأخلاقية بالكلية، إلا أنهم لا يلتزمونه ولا يرونه يلزمهم.

هذا التفريق بين جبرية الدهرية المعاصرين وجبرية أهل القبلة وبيان مذهب أهل السنة في المسألة بإيجاز، رأيته مهما قبل الشروع في الرد على "الدحيح"، لأني رأيته يتكلم في مسألة الحتمانية الدهرية هذه بمصطلحات "التخيير" و"التسيير" التي هي بالأساس جارية على نزاع المتكلمين والفلاسفة الإسلاميين، لا على نزاع فلاسفة الحتمانية الغربيين! فالرجل حاطب بليل، لا يدري من أي حمأة يلغ بلسانه، كما سيأتي معك بيانه. وإني لأرجو ألا أكون بهذا التقديم قد خالفت شرط أخي الحبيب الشيخ أبي عائش إذ طلب مني أن أجعل الجواب في متناول القارئ العامي، فإني رأيت الأمر مهما، وتناول أقوال الناس في ذلك الأمر العظيم ليس مما يستسيغ العقلاء عرضه في مقطع فيديو لا يجاوز التسع دقائق، ولا يقبلون أخذه بالهزل واللعب كما هي طريقة ذلك السفيه المردود عليه! بل لابد من التدقيق والتطويل ما لزم ذلك، فسأحاول بحول الله وقوته أن يأتي البيان في تفصيل الجواب على نحو لا يستغلق على القارئ العامي ولا يمله، ولا يكون فيه – مع ذلك - من الإيجاز ما يتعذر معه حصول المقصود من الرد، بل يكون ردا لائقا بموضوعه كما ينبغي أن يكون. وسأعرض ما عند الدحيح عرضا مرتبا،

بالرد على الحلقات الثلاث التي تناول فيها تلك المسألة بترتيب عرضها على قناته على يوتيوب، والله الموفق المعين.

فنقول وبالله التوفيق إن من كان لديه علم بالكتاب والسنة، وعلم بالفرق والملل والنحل والمذاهب الفلسفية، إلى جانب الدراية الكافية بمنهجية التجريب والتأويل والافتراض الطبيعي المسماة بالطريقة العلمية Scientific Method ، يتبين له من أول وهلة، جهل هذا الرجل وفقره في تلك الأبواب جميعا، والله المستعان. فهو يأتي بالتجارب ينقل إلينا تأويلات الطبيعيين لها وكأن تلك التأويلات والتفسيرات هي وحي الرب المنزل من السماء أو الحق البدهي الذي لا محيد عنه! فالطبيعيون يعتقدون أن المخ هو العقل وأن خلاياه وكيمياءه وكهربته هي منبع كل إرادة، وبناء على ذلك الأصل فسروا نتائج تجاربهم، والأخ يتابعهم في ذلك كالبهيمة أعزكم الله! والطبيعيون يعتقدون أن مجرد ثبوت مقدمات سببية – أيا ما كانت – لإرادة الإنسان (التي يظهر أثرها في نشاط خلايا مخه وجهازه العصبي كما ترصده آلاتهم) هذا يقتضي انتفاء صفة الحرية عن أي إرادة تنقدح في نفس الإنسان، والأخ – من جهله – يتابعهم على ذلك أيضا! أو على الأقل يعرض تلك التجارب وتأويلاتها على أنها أمر "مرعب"، لأنها جاءت أخيرا بكلام "العلم Science "في مسألة حيرت الفلاسفة لقرون طويلة !

فهو – من جهله - لا يعلم أنه بذلك يكون ضحية مذهب فلسفي اسمه الوضعية المنطقية Logical Positivismالذي يقال للغلاة من معتنقيه في هذا العصر العلمويون، أو أتباع الفلسفة العلمويةScientism ، وهم أولئك الذين يرون أن مجرد ظهور نظرية طبيعية قد صممت تجارب معينة يمكن أن تفسر نتائجها على نحو يوافقها، هذا يكون الحق به قد جاء إذن وزهق الباطل وارتفع النزاع، وصار كل قول يخالفها خرافة وأسطورة! ثم إنه كذلك لا يعلم أنه ضحية مذهب فلسفي دهري آخر اسمه ثنائية الخصائص Property Dualism وهو ذلك المذهب القائل بأن نشاط العقل (من أفكار وإرادات ومشاعر وعواطف ونوايا .. إلخ) إنما هو جملة من الأنشطة والتفاعلات المادية الفيزيائية والكيميائية في خلايا المخ، لا أكثر ولا أقل. وهذا في الحقيقة اعتقاد فلسفي يعتنقه الباحث التجريبي قبل دخوله المعمل، فيخرج منه وقد تأول جميع التجارب وجميع النتائج والمشاهدات في المعمل بما يوافقه! ولو أن صاحبنا هذا قرأ شيئا في فلسفة العلم، لعلم أنه لا يلزم من مجرد جواز تأويل المشاهدات وفقا للمذهب الفلسفي

الميتافزيقي (أ) ثبوت صحة (أ)! بل قد يكون الواقع على خلاف (أ) هذا كلية، ومع ذلك يكون من الممكن عقلا تأويل المشاهدات والتجارب بما يوافق (أ).

فإذا كان ذلك كذلك، فما موقف المسلمين من تلك التجارب والمشاهدات التي جاء بها صاحبنا، يلهث باستعراضها لهث الكلاب وهو لا يعقل مقتضياتها ولا أصولها الفلسفية، يتخذ المسألة هزوا ولعبا، ولا يبالي على أي اعتقاد في القضاء والقدر (الذي هو ركن من أركان الإيمان عند المسلمين) يبيت مشاهدوه؟؟ نقول ابتداء إننا لا شأن لنا بهذين المصطلحين الفلسفيين الفاسدين: مخير ومسير، ولا نجيز استعمالهما لسبب يأتي بيانه في ذيل هذا المقال!

ثم نقول إننا معاشر أهل السنة نعلم علما قاطعا بالعقل والنقل جميعا أننا أصحاب خيار حر فيما نأتي من أفعالنا وما نذر! ونفهم معنى الخيار الحر لا على أنه ذلك الخيار الذي لا تسبقه أسباب تؤدي إليه، فهذا مذهب القدرية الذين قالوا إن العبد هو خالق أفعال نفسه، فجميع أسبابها تبدأ منه وتنتهي إليه، وهذا يلزم منه جعل العبد شريكا للرب في الخلق والتدبير، ولهذا سماهم أئمة السنة بمجوس الأمة! فلا نقول إن حرية الإرادة تقتضي ألا يكون قبل حصولها في وعينا أو وقوعها في نفوسنا أسباب متقدمة عليها مما لا علم لنا به، هذا قول فاسد، سنرجع إليه بعد قليل إن شاء الله تعالى.

وإنما نفهم حرية الإرادة عند الإنسان على أنها ذلك الخيار الذي نعلم يقينا وبداهة أننا لم نجد أنفسنا مجبرين ولا مكرهين عليه! أنا الآن أملك أن أختار بكامل إرادتي أن أغلق الكمبيوتر ولا أواصل الكتابة! ولكني أختار خيارا حرا أن أواصل الكتابة وأتم ما بدأته، ولو شئت ما فعلت! ولو هممت بإغلاق الجهاز الآن فلن يمنعني مانع إلا أن يشاء الله! وإذن أكون مريدا فاعلا لفعل الإغلاق، قد أفضت إرادتي وقدرتي إليه كأثر ظاهر لتلك الإرادة والقدرة، إذ هما من جملة أسبابه قطعا، وإذن أكون أنا محدث ذلك الحدث أو فاعله لا غيري، لا القانون الطبيعي ولا الرب الذي خلقني وخلقه وخلق كل شيء سبحانه! ولا يشكل على ذلك المعنى عندي، علمي بأن ثمة أسبابا لا أحصيها يجب أن تجتمع من غير سلطاني ولا قدرتي، وموانع سببية يجب أن تنتفي، حتى يتم لي فعل ما أريد، مهما كان الفعل المطلوب دقيقا حقيرا! فهذا المعنى أعرفه من نفسي كما يعرفه كل عاقل من نفسه، ولا يماري في صحته إلا مكابر!

وإذا كان ذلك كذلك، فقد تحققت المسؤولية الأخلاقية والشرعية على أفعالنا وإراداتنا وصحت نسبتها إلينا من هذا الوجه! وهذا ما تجد معناه مستفيضا في الكتاب والسنة،

كما في قوله تعالى: ((أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ)) [البقرة : 108] ((وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)) الآية [الروم : 39] وقوله جل شأنه ((أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ)) [الصافات : 86] وقوله تعالى: ((تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) الآية [الأنفال : 67] وقوله تعالى: ((وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)) الآية [آل عمران : 145] وقوله تعالى: ((وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)) الآية [الحج : 25] وقوله تعالى: ((فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)) [النجم : 29] وقوله تعالى: ((فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ)) الآية [الكهف : 29] وقوله تعالى: ((فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً)) [المزّمِّل : 19] وغير ذلك !

ومع ذلك، فنحن نعلم كذلك علما قاطعا بالعقل والنقل جميعا أن الله تعالى هو خالق أفعالنا وإراداتنا وفقا لتقدير سابق، لأنه سبحانه لا يقع شيء في ملكه إلا بمشيئته وخلقه وتدبيره وتقديره، وهذا من مقتضيات كمال الربوبية الواجب له، الذي به استحق أن يُعبد وحده لا شريك له!

وهذا يعني أنه لا تقع مشيئة ولا إرادة في مخلوق من المخلوقات إلا من بعد مشية الله وإرادته الكونية، فهو يخلق الإرادة في نفس العبد لا أن العبد هو الذي يخلقها في نفسه! وهو يخلق الفعل وجميع أسبابه، بما في ذلك خلق المشيئة في نفس العبد وجميع أسبابها المتقدمة عليها، ما علمناه منها وما لم نعلمه، لا أن العبد هو الذي يخلق ذلك! قال تعالى: ((وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)) [الصافات : 96] وقال سبحانه: ((وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)) [الإنسان : 30] فإذا أراد الله بعبد خيرا، خلق له أسباب الهداية ومنع عنه موانعها السببية، وشرح صدره لقبول الحق، فخلق في نفسه أسباب ذلك القبول، ولا يتنافى ذلك مع كونه – أي العبد – قد وجد في نفسه المشيئة والاختيار الذي يستحق به المثوبة – حقيقة لا وهما، بفضل الله وتوفيقه وهدايته – أو يستحق به العقوبة، استحقاقا تاما لا مرية فيه!

أليس قد قال تعالى: ((فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ)) [الأنعام: 125]؟ أليس قد قال سبحانه: ((وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)) [الأنعام : 111]؟؟ أليس قد قال: ((وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ

رَبُّنَا)) الآية [الأعراف : 89]؟ فأنت وما تريد وما تفعل، وما يتقدم مشيئتك وفعلك من الأسباب، كل ذلك من خلق الله وتدبيره وتقديره وجوبا وضرورة، ولا يلزم من ذلك كله أن تكون مكرها أو مجبورا، وإنما ترى نفسك مجبرا على الفعل عندما تعلم أنك قد أكرهت عليه إكراها، وهو أن تأتي الفعل وأنت كاره مضطر، تخشى الفتك أو الهلاك إن امتنعت! فهل هذا ما يقع لنا في كل مرة نختار خيارا نعلم من أنفسنا أننا لو شئنا أن نختار خلافه لفعلنا؟ أبدا! فالجبرية قالوا إن خلق الله أفعالنا وإراداتنا وخلقه ما يتقدم عليها من الأسباب يقتضي الجبر، وأننا كالريشة في مهب الريح، لا نملك خيارا على الحقيقة، وهذا باطل ظاهر البطلان! والقدرية في المقابل قالوا إن المشيئة الحرة التي نثبتها للإنسان وتترتب عليها المسؤولية الأخلاقية لا يصح أن تكون مخلوقة في نفس الإنسان، ولا أن تكون لها أسباب متقدمة عليها قد خلقها الله في نفس العبد وفيما حوله في بيئته وتربيته ومجتمعه ونحو ذلك، لأن ذلك ينافي كونها مشيئته الحرة، وهذا أيضا قول باطل ظاهر البطلان! والحق ما تقدم تقريره من مذهب أهل السنة! ومن أراد الزيادة فيه فلينظر نقض الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على القدرية والجبرية في كتابه الماتع "شفاء العليل ."

فإذا علم هذا وتقرر، فالآن يأتي السؤال: كيف نتعامل مع تلك التجارب التي جاء بها ذاك الجهول وجعل منها شيئا عظيما مرعبا؟؟

نقول وبالله التوفيق، إن تجربة بنيامين ليبت هذه قد قتلت ردا وإبطالا عند التجريبين أنفسهم، وهو ما يدلك عدم تكلف هذا الرجل مجرد الإشارة إليه على خبث طويته! ولنا أن تأويل المشاهدات على معنى أن ذلك النشاط المرصود في المخ قبل انقداح الإرادة في النفس (إن سلمنا بصحة الرصد، ولا نسلم) إنما هو الإرادة نفسها تأويل فاسد، لأننا نعلم أن الإرادة والنية ليس محلها المخ أصلا، وإنما هي عمل عامل غيبي محله القلب، كما في قوله تعالى: ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)) [الحج : 46]، ولا يلزمنا اعتناق الفلسفات المادية الدهرية العفنة التي تلبس بها من تلبس ممن زعم أنه قد جاءنا "بالعلم الحديث" الذي فيه فصل المقال في مسألة العقل وعلاقته بالمخ!

فإن صح أنهم شاهدوا شيئا على أجهزتهم بالفعل، فما هو إذن وما تأويله؟ الباب في ذلك تتنازعه – على عقيدتنا نحن لا على عقيدة الدهرية القائلين بالفلسفات التي تقدم ذكرها - احتمالات لا تأثير لشيء منها على مذهب أهل السنة في القدر من قريب ولا من بعيد! ومجرد ادعاء جواز انقلاب عقيدتنا في القدر على أثر تأويل من التأويلات لتلك المشاهدات هو قلب للعقل نفسه! فالصواب عند العقلاء كافة، أن يكون النظام الاعتقادي الغيبي القائم على بدهيات العقل الأولى ومسلمات الفطرة أولا ثم على قطعيات الوحي الإلهي ثانيا، هذا النظام المعرفي هو المعيار في قبول التأويلات وردها، أي يشترط في قبولها أن توافقه، إن كنا ولابد فاعلين، لا أن يؤتى بتأويلات وتفسيرات للمشاهدات مستمدة من نظام اعتقادي مخالف بالكلية ثم تتخذ حجة على اعتقادنا نحن ! فنقول، في ضوء عقيدتنا كمسلمين، إنه من الوارد – مثلا - أن يكون ذلك الذي شهدوه في المخ من نشاط قبيل الوقت الذي ذكر الرجل أن الإرادة قد ظهرت في نفسه فيه، مجرد مقدمات سببية مادية لتشغيل المخ للجسد وفقا للإرادة التي كان انقداحها في النفس (التي هي غيب حتى عن صاحب تلك النفس) قبل ذلك التوقيت الذي ظن أنه هو وقت انقداحها في الحقيقة! فمن المغالطة في مثل هذا أن يعتبر مجرد التقدم الزماني لتلك الإشارات على إدراك الإرادة عند المبحوث، دليلا على كونها سببا فيها، وهي مغالطة يقال لها عند المناطقة المعاصرين Post Hoc Ergo Propter Hoc ، أو "بعده إذن هو ناشئ عنه"!

والقصد أنه لا مانع من أن يكون انقداح الإرادة في نفس الإنسان متقدما في الواقع على الوقت الدقيق الذي ظن هو (عند الاستبطان والتذكر أثناء التجربة) أنها انقدحت فيه! وهذا ما ذهب إليه كثير من نقاد التجربة. أو يقال إنه من الجائز عقلا أن يكون حصول الإرادة في النفس متقدما أحيانا أو دائما على ظهورها في الوعي! والظاهر عند التأمل أن في تصميم التجربة نفسها خطأ نظاميا Systematic error ، سببه - إلى جانب أسباب أخرى - اعتمادها على الاستبطان Introspection كوسيلة للقياس السايكومتري (وهو في هذه الحالة سؤال الرجل محل التجربة عن الوقت الدقيق الذي انقدحت فيه الإرادة في نفسه، فلا ندري هل يمكننا على التحقيق أن نحدد ذلك بدقة من طريق الاستبطان والتذكر، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون ضربا من التخمين المحض!)! ومجرد حقيقة أن الرجل يعلم أنه واقع تحت التجربة، وأنه على وشك أن يختار لحظة ما يحرك فيها يده، مع تحفزه وانتباهه السابق إلى الساعة التي أمامه استعدادا لتحديد اللحظة التي حصلت فيها الإرادة الواعية في نفسه إذا شعر بها، كل هذا لابد وأن له

تأثيرا ما على النشاط المخي المرصود على الجهاز، فيما قبل اللحظة التي قدر المبحوث أنها هي لحظة إدراكه أنه يريد تحريك يده!

ومن جديد أقول: لماذا لم يذكر الدحيح انتقادات الطبيعيين أنفسهم لتلك التجربة وتصميمها ودلالات المشاهدات فيها، ولماذا لم يذكر – مثلا – تجربة جيف ميلر وجودي تريفينا في 2009 الميلادية، التي تأولا نتائجها على أن ما يجري في المخ من إشارات قبل وقوع الحركة العضوية إنما هو استعداد حيوي داخل المخ لا علاقة له بوجود الوعي الظاهر عند المبحوث Conscious Awareness بنيته أو إرادته المتقدمة على الفعل؟؟ السبب أنه قد سبق لديه الاعتقاد السائد حاليا لدى الطبيعيين عامة بأن حرية الإرادة ليست إلا جملة من الأنشطة الكهربية والكيميائية التي تجري داخل المخ، وأنه لا حقيقة لثنائية العقل والجسد التي يقول أصحابها بأن العقل والنفس إنما هما من خصائص شيء غيبي يقال له الروح !

وهذه أيها القارئ الكريم هي آفة الجهل بأصول فلسفة الاستدلال والنظر عند التجريبيين، التي يعاني منها هذا المسكين وعامة الأذناب من مخانيث الطبيعيين من بني جلدتنا في هذا الزمان والله المستعان! فالذي يعتقد اعتقادا سابقا بأن النوايا المتقدمة على الأفعال ليست إلا نشاطا ماديا محله الدماغ، بناء على اعتقاد مفاده أنه ليس العقل الواعي نفسه إلا نشاطا من أنشطة الدماغ، فهذا من غير المستغرب أن تراه يصمم التجارب كتلك التجربة التي صممها ليبت (وفرح بها صاحبنا هذا) وغيره بحثا عن كيمياء النية وفيزياء الإرادة وكهرومغناطيسية العقل الذي هو عنده من الأصل ليس إلا نشاطا من أنشطة الدماغ! أما الذي يعتقد أن المخ إنما هو الرابط المادي الفزيقي بين الجسد والجهاز العصبي من جانب، وبين كيان غيبي محض اسمه العقل ليس محله خلايا الدماغ، فهذا لن يستجيز الدخول إلى المعامل بذلك المطلب الساقط ابتداء، ولن يرى في تلك التجارب إلا ضربا من العبث، واستعمالا لآلة البحث التجريبي في غير محلها!

لن يدخل الإنسان المعمل إلا وهو معتنق – بالضرورة - عقيدة معينة يصمم التجارب بما يناسبها، ويقرر في ضوئها ما يتوقع أن يراه من أنواع المشاهدات، بناء على أوفق التأويلات الجارية على ذلك الاعتقاد لديه! فلا نقبل من سفيه لا يدري يمينه من شماله في هذه القضية أن يأتينا بكل سذاجة كصاحبنا هذا ليقول: لقد أثبت العلم التجريبي أنه لا حقيقة "لحرية الإرادة"، أو أثبتت تجربة فلان الفلاني أن "حرية الإرادة" وهم أو لا تأثير لها على أفعالنا كما كنا "نظن" من قبل، أو أن "التجارب العلمية" قد حسمت

النزاع – أخيرا – في مسألة الجبر والاختيار، أو حتى أنها أضافت إليه قولا ذا بال !! حقيقة أن الأفعال الحرة متولدة عند الإنسان عن نوايا وإرادات حرة متقدمة عليها في نفسه، هذه حقيقة بدهية لا يلزم أن يكون الإنسان موحدا مؤمنا بالغيب حتى يقول بها! فإذا جاءنا سفساط من الطبيعيين يقول إنه صمم تجربة تطرح هذه الحقيقة نفسها للمسائلة والنقد، رددنا عليه تجربته ابتداءً ولا كرامة، من قبل أن نتكلف النظر فيها! لماذا؟ لأن مبدأ طرح هذه المسألة للتجريب مبدأ فاسد عقلا من الأساس! ومن حقنا كعقلاء أن نرد على التجريبيين أسسهم العقلية التي بها استجازوا تصميم التجارب للبحث في هذا النوع من المسائل، وأن نجعل ذلك مستندا كافيا للنقض عليهم ! ولم نزل معاشر المسلمين نقول إن إرادة الإنسان إنما هي سبب من جملة أسباب يجب أن تجتمع حتى يقع الفعل تحقيقا، فقدرة الجسد واستعداده العضوي – مثلا - هما من جملة الشروط السببية التي إن لم تتحقق لم يكن للإرادة أو النية أي تأثير سببي كما هو ظاهر! وكل ما يرصد في المخ إنما هو من جوانب النشاط العضوي المادي الناشئ في الإنسان عن حصول نية الفعل في شيء غيبي اسمه النفس محله القلب!

فلماذا لا يكون تأويل تلك التجارب، إن سلمنا بأن الإرادة قد "ظهرت" في وعي المبحوث في نفس الوقت الذي حدده هو، وأن المبحوث قد حدده تحديدا دقيقا، وبأن مسألة الاستطبان Introspection تصلح كطريق للإثبات والنفي في مثل هذا، لماذا لا يكون تأويل المشاهدات في تلك التجارب إنما هو رجوع ذلك الوعي (الوعي بحصول الإرادة) وكذلك تلك الإشارات المرصودة من قبله، إلى سبب غيبي متقدم عليهما جميعا، محله ليس في المخ أصلا، ولن يمكنهم أن يرصدوه بأجهزتهم مهما عملوا؟ وإذا كانت التجربة تجيز هذا التأويل كما تجيز تأويل من يقولون بأنه لا روح ولا غيب في أمر العقل والنية والإرادة على الإطلاق، فما قيمتها المعرفية إذن وأي شيء يكون تكلف القيام بها إلا ضربا من العبث والسفسطة؟؟

مشكلة الدحيح وأمثاله من مخانيث التجريبيين أنهم لا يتصورون دخول السفسطة والسخف والتناقض على التجارب المعملية! وكأنه إذا جاءت التجربة المعملية، انقطعت سائر طرق المعرفة في موضوعها إلا منها! فنحن نقول إن لم يكن الإنسان على بينة من عقيدته الغيبية، راجعا فيها إلى مستند معرفي راسخ – كما هو الشأن في اعتقاد المسلمين في الروح وفي العقل الذي تجري أعماله الاختيارية الواعية (التي منها النية) في القلب لا في الدماغ – فلن يدخل المعمل إلا بخرافة، بل لن يقرر أن يصمم تجربة

يدخل بها المعمل من الابتداء إلا تأسيسا على خرافة، ثم لن يخرج منه بعد إتمام تجربته إلا بالمزيد من الخرف والهذيان، نسأل الله السلامة!

وأما واقعة الرجل الذي أصيب بورم في مخه جعله يشتهي ممارسة الفاحشة مع الصبية الصغار (إن سلمنا أن كان تأويل التوافق الظرفي Correlation بين ظهور الورم والتغير السلوكي هو الرابط السببي Causation ، ولا يلزم أن يكون كذلك)، وتجربة الرجل الذي لما عرضوا مواضع في مخه للتحفيز الكهربائي، انقدحت في نفسه الرغبة في أن يلحس شفته، فمن المعلوم في ديننا أن الشهوات والغرائز والميول الحسية لها أسبابها المادية! فأنت عندما تشتهي تناول الطعام، فلا يقع ذلك في نفسك إلا لأسباب جسدية معروفة، تطرأ في الجهاز الهضمي وفي المواضع المرتبطة به في الدماغ، ونظير ذلك يقع لك إذا اشتهيت الجماع ومالت إليه نفسك! ولكن ظهور الشهوة والميل الحسي شيء، وانقداح الإرادة الحرة أو المشيئة التي يتعلل بها الفعل الذي يحصل به إشباع تلك الشهوة أو الميل الحسي شيء آخر منفصل، ولا تلازم بينهما، وإلا لما استطاع إنسان أن يتحكم في شهوته وميول نفسه طرفة عين!

نعم يقال إن الإرادة إذا وقعت على ما تشبع به الشهوة، فإن الشهوة الحسية تكون إذن سببا من أسباب حصولها في النفس، لكن لا يصح أن يقال إن الشهوة نفسها هي الإرادة، أو إن الرغبة الحسية (مهما كانت جامحة) هي الإرادة الموجبة (مع القدرة) لوقوع الفعل!

وفي جميع الأحوال، فليس في ذلك معنى الإكراه أو الإجبار على الإطلاق كما هو واضح! فلا الإشارة الكهربية أجبرت الرجل على أن يلعق شفته، بحيث لا يرى نفسه إلا مجبرا مضطرا لذلك لا يسعه الامتناع منه، ولا الورم الذي ظهر في مخ الآخر (الذي انتهى به الأمر إلى اغتصاب طفلة صغيرة) أجبره على تلك الأفاعيل وعلى الترسل مع تلك الشهوات والنوازع، بحيث لا يتصور له أن تنشأ في نفسه إرادة الامتناع عن شيء من ذلك في حال وجود الورم! ومع ذلك يسوي الماديون من سفاهتهم بين الشهوة الحسية والفعل اللاإرادي من جانب، وبين الإرادة أو المشيئة الواعية المفضية إلى الفعل، ويجعلونهما أمرا واحدا، والأخ يأتينا بذلك الخطل الدهري يقرره بين أيدي المسلمين وكأنه الحق المبين!

وحتى عندما زادوا من قوة الإشارة الكهربية فشاهدوا الرجل يقول إنه يشعر وكأنه فعل شيئا ما بشفتيه ولا يدري ما هو، مع أنه في الحقيقة لم يفعل شيئا، فلا يكون تأويل ذلك على أنه قد حصلت في نفسه إرادة لم يدر بها، كما يوحي به كلام الأخ في المقطع،

وإنما نؤوله على أن وظيفة الذاكرة المرتبطة بآلية معينة وشهوة معينة ملازمة لها في الجسم يحركها ذلك الموضع من المخ، قد اضطربت بسبب تلك الإشارة القوية، فظن الإنسان أنه قد أتى بأمر لم يأت به على الحقيقة! وأما قوله إننا يمكن أن نجري إشارات كهربية مخصوصة في المخ بحيث تتسبب في حركة أيدينا على غير أن نشعر، فهذا يا مسكين يسمى العمل اللاإرادي، وهو حجة (بمجرد اسمه involuntary) على نفاة الإرادة الحرة لا لهم، وهو كما يكون منك عندما يضع أحدهم يدك في ماء بارد وأنت نائم فتبول على نفسك في فراشك رغما عن إرادتك!

ففي جميع الأحوال، لم نعجز – كما ترى - عن الإتيان بتأويلات توافق اعتقادنا الغيبي، نرد بها تأويلاتهم القائمة على عقائدهم هم وميتافزيقاهم الدهرية! ويبقى أن يقال في الأخير إنه أيا ما كان تفسير تلك المشاهدات، فحتى لو سلمنا تنزلا بأن الإرادة أو المشيئة الإنسانية إنما تخلق في خلايا المخ نفسها لا في شيء غيبي يرتبط به المخ والقلب جميعا ارتباط الآلة بمشغلها (كما هو اعتقاد المسلمين)، فإنه لا تعارض بين كونها إرادة حرة موجبة للمسؤولية الأخلاقية، وبين حصولها جريا على أسباب مادية متقدمة عليها في المخ لا نملك حكما عليها ولا دراية بها!

ألسنا معاشر المؤمنين نؤمن بأنها (أي مشيئة الإنسان) وجميع أسبابها المتقدمة عليها، مخلوقة لله جل وعلا؟؟ فليكن – على سبيل التنزل – أن هذا الذي رأوه إنما هو من الأسباب المفضية إلى حصول الإرادة والنية في النفس، فكان ماذا؟ مهما سألت الرجل المبحوث في هذه التجربة أو تلك عما إذا كان قد أجبره أحد أو أكرهه أحد على الخيار الذي اختاره أو شعر بذلك أو بقريب منه، فسينفي ذلك المعنى عن نفسه لا محالة، ومهما تحركت يده أو شفته على أثر الإشارة الكهربية التي يحدثها الباحثون على مخه على غير إرادته، فهو يعلم حينها أن إرادته الحرة كانت على خلاف ذلك، وهذا هو المطلوب في نفي معنى الجبر المطلق الذي حررناه في صدر المقال، وإنما يصح معنى الجبر والإكراه على ما كان من أفعال البشر واقعا منهم على خلاف إرادتهم الواعية، ورغما عن اختيارهم، كما يعلمه من نفسه كل مكره أو مجبر!

أما أن يتكلم هذا المسكين الضايع بكلام لا يعقله ولا يدري ما حقيقته، ثم يأتينا في نهاية الحلقة بتخمينات الفلاسفة وشطحات المفكرين، يقول لعل وربما، في قضايا من خاض فيها بجهل تزندق، فهذا محض سفه، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قال تعقيبا على قصة الرجل الذي أزالوا الورم من رأسه فذهب اشتهاؤه للصبية الصغار: "قصة زي دي لو فكرت فيها مرعبة، بتبين إن تغييرات بسيطة في المخ، ممكن تغير شهواتنا، ميلونا وتصرفاتنا، وتغير قدرتنا على التحكم في الحاجات دي. ومين عارف؟ ما يمكن تكون بتلغينا إحنا نفسنا من المعادلة! في الآخر، أليكس ما كانش حاسس إنه مظلوم، ما كانش حاسس إن فيه ورم نوعا ما بيأخره، ولما اتسأل قبل ما يعرف بموضوع الورم ده، كان بيقر ويعترف إن هو استسلم لشهوته!" هـ. قلت: سبحان الله! فما معنى الاستسلام للشهوة يا سفيه، إن لم يكن استقلال الشهوة عن الإرادة، فإما أن تستسلم الإرادة للشهوة أو تتغلب عليها؟ أنت تجعلهما شيئا واحدا! تجعل مجرد انقداح الشهوة الجامحة في النفس هو عين الإرادة، وهذا تلبيس ظاهر وتناقض في كلامك لا يخفى على ذي لب وبصر!

ثم قال: "قصة زي دي الحقيقة بتثير تساؤل مهم جدا في تاريخ البشرية: هل الإنسان مسير والا مخير؟ هل احنا عندنا الحرية المطلقة في اختيار تصرفاتنا، والا احنا مجرد آلة حيوية بيتحكم فيها مخ في بيئة معينة، عمر ما كان لينا اختيار فيها؟" اهـ. قلت: فغرض الفيديو إذن أن يأتيك – أيها المسلم الموحد – بجواب "التجريبيين" لذلك السؤال، الذي هو عنده "العلم" و"جواب العلم"، والله المستعان! ولا نجيب سؤالا كهذا حتى يأتينا بتحرير ما يقصد بالحرية المطلقة وما يقصد بقوله "تتحكم فينا !" ثم قال: "حسب دراسة لوزارة العدل الأمريكية، تقريبا سبعين في المية من المجرمين اللي اتحكم عليهم تعرضوا لأذى نفسي، وهم أطفال! دي نسبة مش هينة! سبعين في المية! وده يخلينا نفكر في مسألة التخيير والتسيير بشكل أكثر جدية! طالما ورم ممكن يخلينا نعمل أعمال شنيعة، والأعمال الشنيعة دي اللي تعرضنا ليها في صغرنا تخلينا نعمل أعمال شنيعة، يبقى احنا فين؟؟ "

قلت: يا مسكين، لا يزال البشر يتعرضون للابتلاء بهذا الذي ذكرت وأشد منه، ولا يزال الرجل يدري من نفسه عندما يختار الباطل والشر أنه قد اختار باطلا وشرا، فيستحق العقوبة بذلك ولا كرامة! ولا تزال الراقصة والعاهرة بائعة الهوى تقول كلما أرادوا أن يحاكموها: "حاكموا أنفسكم، فقد جعلتموني عاهرة!" أو تقول: "المجتمع هو السبب، هو الذي ضيعني!" ونحو ذلك من كلام متفلسفة الفساق والدواعر، الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، يوهمهم بأن الذنب ليس ذنبهم وأن الإثم ليس عليهم! نعم قد يبتلى الإنسان بالنشأة في بيئة كلها زناة ومجرمون، ولكنه إذا بلغه الحق وقامت عليه حجته، وكان مميزا عاقلا يفهم ما يسمع، فإنه إذن تنقطع دونه سائر المعاذير إن بقي

على غيه وضلاله ولم يعقد العزم الصادق على التوبة! من بلغه أن الخمر حرام في دين رب العالمين، فهو آثم بشربها مهما كان مغموسا من يوم مولده في الخمارات وأهلها! فنحن نثبت تعدد أسباب السلوك الانحرافي في الإنسان ونقره ولا ننفيه، وإنما نعلق المسؤولية الأخلاقية على سبب واحد منها ألا وهو الإرادة الواعية لإتيان الفعل المحرم. ولا نعجب إطلاقا ولا نخاف ولا نصاب بهذا الهلع الذي تكلم به ذاك السفيه، إن قدر أن ثبت وجود خلل ما في مخ بعض الناس يجعل من أسباب انحرافهم وميلهم للفواحش سببا عضويا طبيعيا Nature ، كما أن من أسبابه ما يرتبط بالتربية وبيئة النشأة Nurture!

فإن كان ذلك كذلك، لم نجد فيه ما يقتضي سلبهم حرية الاختيار بحال من الأحوال، وإنما يقال في المبتلين به إن ابتلاءهم بأحوالهم أشد من ابتلاء غيرهم في نفس الأمر! وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث أن الناس معادن وأن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وبمفهوم المخالفة يقال إن شرارهم في الجاهلية شرارهم في الإسلام إذا جهلوا. فمن مفهوم الحديث أن الإنسان قد يبتلى في جملة ما يبتليه الله به في الدنيا بطباع قبيحة تحرك نفسه على أفعال السوء كما لا يحصل لغيره ممن حسنت طباعه وحسن معدنه.. فهل يلزم من ذلك إعفاء أهل الطباع الخبيثة من المسؤولية الشرعية أو إسقاط قلم التكليف عنهم بدعوى أن طباعهم تملي ذلك عليهم؟ أبدا! ولا يقول بذلك مسلم! وإنما يكون ابتلاؤهم بنقائص نفوسهم وطباعهم في أبواب معينة أعظم من ابتلاء غيرهم! وأجر أحدهم إذا راقب نفسه وجاهدها وكبح جماحها أعظم من أجر غيره. ولا يزال البشر يتفاوتون في ذلك تبعا لحكم ربهم في ابتلائهم. يبتلى الرجل بحدة الطبع وخشونته وسرعة الغضب فيكون جهاده أعظم من غيره في مكافحة ذلك الطبع وكبحه.. ويبتلى الرجل بالجبن وغلبة الخوف على نفسه عند نزول الشدائد فيكون جهاده أعظم عند تعرضه لموقف يوجب عليه الثبات ورباطة الجأش، وهكذا.

ويروي رب العالمين في القرآن قصص أناس نشؤوا في بيوت المشركين، بل تحت رؤوس الشرك من طواغيت الوثنيين، ومع ذلك كانوا من أولياء الله الصالحين، قال تعالى: ((وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)) [التحريم : 11] فليس في صور الانحراف الفكري والسلوكي ما هو أفسد للفطرة وأبعد عن العقل السوي الصحيح، بعد الملل الدهرية الطبيعية، من شرك فرعون وآل فرعون، لعنهم الله! وهذه امرأة مستضعفة، ابتليت بأن تكون تحت ذلك الطاغوت المستكبر، فما كان من شيء

أحب إلى الإنسان من أن يوافق قومه على ملتهم وتستكين نفسه إليها ولا إلى المرأة من أن تكون على دين زوجها! ومع ذلك لما عرفت الحق، جاهدت تلك المرأة الصالحة هوى النفس وميلها وطمعها في الدنيا أشد ما تكون المجاهدة، حرصا على أن تموت على دين التوحيد! فلا يتنطعن سفيه جاهل علينا بقوله إن من يتعرض للأذى في طفولته فإنه "يسيره" مجتمعه للرذيلة والفاحشة تسييرا !

والواقع أن الدهرية الطبيعيين من النفسانيين والاجتماعيين ونحوهم من أصحاب العلوم الإنسانية، كانوا ولا يزالون يحولون المجرمين العتاة أصحاب السجلات الإجرامية الطويلة من قطاع طريق مفسدين في الأرض يستحقون أسد العقوبة وأبلغ التنكيل، إلى "مرضى نفسانيين Psychopaths / Sociopaths "ما كانوا يملكون خيارا فيما صاروا إليه من سلوك "يخالف ما يرتضيه المجتمع"، فلا يكون لهم إلا التعاطف، ولا يدعى الناس لبترهم وخلعهم ومعاقبتهم بما هم أهله، ولكن للتعاطف معهم و"علاجهم" في المصحات النفسية! وهذا من أعجب العجب، ومن أفسد الفساد! وهو ما حاول الدحيح أن يروجه في حلقة لاحقة سماها "بالسفاح"، أراد أن يوهم نفسه والسامعين فيها بأن أشد المجرمين عتوا في الإجرام، إنما صاروا كذلك لأنهم أصحاب خلل في المخ لا يملكون معه إرادة ولا اختيارا في تلك الجرائم الشنيعة التي يتلبسون بها، وإذن فهم مجانين أخلاقيا Morally Insane ، وإذن فالواجب أن يعاملوا معاملة الأطفال في هذا الجانب!! قال إنهم على الرغم من تمتعهم بكامل قواهم العقلية، إلا أنهم "مش فاهمين يعني إيه تعاطف"، ثم فسر ذلك برجوعه إلى "أصل بيولوجي" وإلى جينات معينة قد ولدوا بها! وأخذ يروج لخرافة أن الكورموسوم Yالزائد عند بعض الناس يكون هو السبب البيولوجي في صيرورة أحدهم مجرما سفاحا "مش فاهم يعني إيه تعاطف"، وتجاهل ما نشره التجريبيون أنفسهم من تفنيد طويل لتلك الدعوى وأدلتها المزعومة عند أصحابها !

وحتى وإن لم ينشروا شيئا، وحتى إن سلمنا بأن بعض الناس يبتلى عند مولده بخصائص بيولوجية تجعله أشد ميلا للسلوك الانحرافي من غيره، فإن هذا لا يوجب علينا أن "نغير من الطريقة التي نتعامل بها" مع هؤلاء، كما هي دعوى الدحيح ومن تشرب بإلحادهم! ولا يعني – كما صرح به – جواز أن يرجى أن تعالج جميع "الشرور" والانحرافات السلوكية في المجتمع البشري في يوم من الأيام بالطب والعقاقير وجراحات المخ والأعصاب! ولا يسوغ له كلامه بما حاصله أن مجرد اتهام

هؤلاء بما هم أهله وطلب إقامة حدود الله فيهم هذا هو الشر على الحقيقة لأنه نابع من حب الانتقام على حد عبارته!! هذا اعتقاد من لا يرى غيبا ولا تكليفا شرعيا ولا ابتلاء إلهيا ولا شيء من ذلك، والعقل والنفس وجميع خصالهما عنده خلايا في خلايا وجينات في جينات! وقد عقد حلقة لاحقة سماها "لو الشر مرض"، أتى فيها بأبحاث الدهريين التجريبيين فيما يترتب – سوسيولوجيا وسيكولوجيا – على "معرفة" الناس بأنهم ليست لهم حرية اختيار (كما هو اعتقاد أصحاب ذلك المجال التجريبي الدهري المسمى بمباحث Neuroscience الذي اتخذ من سام هاريس إماما له فيه على ما يبدو)، وأنا أعجب حقيقة من شدة حرص هذا الخبيث على ترسيخ هذه القضية عند متابعيه! لماذا الإصرار والحرص الدؤوب على متابعة تلك المسألة الشائكة عبر ثلاث أو أربع حلقات متتابعات، وصولا إلى تأثيرها على قضايا التشريع والقانون والحكم المعياري، حتى نسمعه يتحفنا بالكلام عن قوم كانوا يحاكمون المجانين بل ويحاكمون الحيوانات والحشرات والفئران؟؟ هل المقصود إسقاط مفهوم العدالة عند الناس، مثلا، وتحويله إلى مجرد رغبة جامحة في الانتقام، ينبغي أن يخلصنا أنبياء العلم التجريبي منها؟ أم المقصود التمهيد لدعاوى تسويغ اللواط والزنا والمجاهرة بالفسق والمعاصي في بلاد المسلمين دون زاجر ولا رادع؟؟ أم لدعوى أن مبدأ التشريع الإلهي ليس إلا نتاجا فلسفيا لرغبة انتقام كامنة ولنوازع نفسية لعل العلم التجريبي يعيننا في المستقبل على تجاوزها والخلاص منها؟؟ أفصح يا جبان عما تريد إن كنت تجرؤ، وأرنا على أي "أجندة" تعمل !

نحن المسلمون نقول: إن هؤلاء المجرمين وإن كانوا قد حركتهم ميول فاسدة وتنشئة مفسدة وفقر وتردي في أحوال العيش، وتعرضوا في طفولتهم لحوادث تركتهم مشوهين نفسيا، يشتهون ما تنفر منه الفطر السليمة من أنواع السلوك الإجرامي، إلا أنهم ليسوا – مع ذلك كله - مبرئين من شنائعهم ولا يلتمس لهم العذر فيها! نقول إن كل من كان سببا في إفساد نفسيتهم وتربيتهم فهو مسؤول عما جناه عليهم، كل منهم بحسبه! ولكن هذا لا يعفي أحدهم من المسؤولية الأخلاقية والقانونية عما جنته يداه! ولا يعفيه من المساءلة أن يثبت – مثلا – أن في مخه وجهازه العصبي من المرض ما جعله يشتهي تلك الشنائع خلافا لطبعه الأصلي! فإنه وإن سلمنا بكونه قد عرضت له شهوة ملحة للغاية، فوق ما هو معتاد عند غيره من الناس، إلا أنه إن سئل فسيعلم ويشهد بأن إرادته – مع ذلك - لم تسلب منه، ولم يجد نفسه مجبرا ولا مكرها على الترسل معها، بل كان بوسعه أن يحجز نفسه عن تلك الشنائع، مع كثير من مغالبة النفس وكبح جماحها!

قال الدحيح في حلقة "مخير أم مخير": "سؤال زي ده (يعني مسألة مخير أم مسير) الحقيقة صعب إن احنا نجاوب عليه، وهو محل نزاع بين الفلاسفة خلال التاريخ. بس سنة 1958، العالم بنجامين ليبت ينشر ورقة مهمة جدا، تدخل وجهة النظر التجريبية في الموضوع.." اهـ. ثم مضى يشرح التجربة وتجربتين شبيهتين، مقررا أننا لو قدر أن استطعنا أن نرصد جميع خلايا المخ بلا استثناء قبل أي فعل إرادي بشري، فسيكون بوسعنا أن نتنبأ بذلك الفعل ونقطع به قطعا تاما، وهذا كما ترى يقتضي الاعتقاد بثنائية الخصائص في فلسفة العقل (أو أحاديتها monism) والوضعية المنطقية كما بيناه آنفا. فالعقل والنفس البشرية عنده – كما عند من تشبع بدهريتهم - ليست إلا تلك الخلايا التي تعمل عملا فيزيائيا وكيميائيا محضا! فليست النفس ولا الإرادة ولا العقل ولا الميول القلبية ولا شيء من ذلك إلا صورا مختلفة للنشاط الطبيعي لمادة المخ، لا أكثر ولا أقل. أما الروح التي نعتقد نحن المسلمون أنها تقبض ثم تبعث بجسد قد أعيد خلقه يوم القيامة، فظاهر كلام ذاك البقباق يقتضي أن يكون جوابه بالنفي والتكذيب إن سئل عنها!

لا سيما وقد قال في موضع لاحق من نفس المقطع: "الانطباع اللي ييجي للواحد، إن احنا مش في مركب واحنا اللي بنسوقها! ده احنا المركب، لو جات عاصفة وكسرت المركب مش هاتكسر الخشب واحنا نفضل طافيين على المياه، ده احنا نفسنا هانتكسر! احنا كمان ممكن نكون اتكسرنا وغرقنا!" اهـ. قلت: فهذا تشبيه خبيث يريد منه التوصل إلى نفي الروح دون تصريح، فأي شيء يُفهم من التسوية بين الإنسان وجسده، بحيث إذا هلك الجسد، لم يبق من الإنسان شيء البتة، إلا أن يكون هو نفي الروح التي يؤمن المسلمون ببقائها بعد هلاك الجسد؟!

ثم قال في نهاية الحلقة الخبيثة في إجابة السؤال "مسير أم مخير": "إحنا ما نعرفش، أو على الأقل، على حسب أنت بتسأل مين! تعريفه للمخير إيه، والمسير إيه! طبعا لو فيه إجابة! لكن حتى لو الإنسان مخير، ففيه أدلة كتيرة جدا على أن هذا التخيير محدود! إن الجسد له مكانته وهيمنته، له سلطته اللي قد تكون في بعض الأحيان مش بس بتمثل احتياجاته، ممكن تكون بمتثل إرادته!" ثم يقول بعد إيراد بعض أقوال الفلاسفة: "هل احنا كده والا كده؟ ما نعرفش، أو أنا ما أعرفش"!

قلت: فتعال إذن – يا جهول – لمن يعرف فيعرفك، ومن يعلم فيعلمك، إن كنت صادقا! أما أن تسحب في ذيلك، على أثر هذيانك وخطلك هذا - من لا تحصيهم من المسلمين ليروا على أثر كلامك أن السؤال ليس له جواب، بل ليروا – أن العلم التجريبي هو مصدر المعرفة الصحيح الوحيد في زمانا، فهذا إنما يدل على أن وراء الأكمة ما وراءها! فمن الواضح أنك ما تريد أن تتعلم، وإنما تريد أن تزعزع المسلمين عن كثير من عقائدهم من غير أن ينتبهوا، تدس لهم السم في العسل، ولا حول ولا قوة إلا بالله ! تقول إن جواب السؤال يعتمد على تعريف التخيير والتسيير عند السائل والمسؤول، ونقول: آلآن وقد قلبت عقول سامعيك رأسا على عقب، تأتي لتنتبه لمسألة التعريف؟؟ سبحانك ربي ما أحلمك!

من الواضح ابتداء أن الطبيعيين والتجريبيين لم يتكلموا يوما من الدهر عما إذا كان الإنسان "مخيرا" بمعنى أن ثمة من خيره، أو "مسيرا" بمعنى أن ثمة من سيره! فهذا البناء لما لم يسم فاعله ، والكلام بهذه الألفاظ عموما من كلام الفلاسفة الإسلاميين في نزاعهم حول صفة الرب جل وعلا وعلاقته بأفعال البشر، هل سير الإنسان أم خيره؟ هم الذين اختاروا هذين اللفظين بناء على نزاعهم البدعي في القدر! فمن لم يكن يرى بالغيب ربا أصلا، فلن يكون السؤال عنده مطروحا بهذه الصورة من الأساس! فالنزاع عند الدهرية الطبيعيين نزاع – كما أشرنا إليه في أول هذا الرد – في حقيقة الإرادة الحرة Free Will التي يجدها الإنسان في نفسه، وليس فيما إذا كان الإنسان مسيرا أم مخيرا! وهذا في الحقيقة ليس خلافا لفظيا لا تأثير له على صورة المسألة! وإنما هو اختلاف في موضوع الخلاف نفسه من الأساس!

فأما محل خلاف الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام ومعهم المتكلمون من الأصوليين وغيرهم، فهو خلق أفعال العباد ومقتضى ذلك وتأثيره على مسألة الاختيار والتكليف. وهو ما يتأسس على إثبات رب بالغيب خلق وكلف. وأما محل خلاف الفلاسفة الدهرية الطبيعيين فهو فيما إذا كان مطلق جريان النظام السببي على الإنسان وإراداته وأفعاله ينافي حقيقة حرية الاختيار لديه، بناء على أن الأسباب الطبيعية وقوانين الطبيعة هي المتصرفة في أمر العالم .

وهذه مسألة دقيقة لا أرى الخوض فيها فوق ذلك في مقال قد اشترطت فيه على نفسي أن يكون الكلام قريبا إلى أفهام العامة من القراء دون مزيد شرح وبيان. لكن الشاهد من هذا، أن الدحيح يستهين بمسألة التعريفات هذه ولا يلقي لها بالا، مع أنها بالغة التأثير في تصور المسألة! والمسكين من جهله وخفة عقله لا يدري أن تفريطه فيها يفسد عليه

إطلاقاته كلها بلا استثناء! فعندما يقول في نفس الجملة التي ذكر فيها مسألة التعريف هذه "فيه أدلة كتير جدا على إن هذا التخيير محدود"، فالمتعين على كل عاقل أن يسأله: ماذا تقصد على وجه التحديد بالتخيير؟! وإن لم يبين لنا مقصوده من "التخيير"، فكيف نوافقه على أن ثمة "أدلة كثيرة" تضييق من نطاقه عند الإنسان؟

وحتى يتبين للقارئ الكريم عظم تأثير قضية التعريفات على كل ما خاض فيه هذا الجهول في هذه المسألة، دعنا نضرب مثلا يسيرا. فنقول إنك عندما تجلس لتكتب كلاما على جهاز الكمبيوتر، فإنك تأتي بعدد وافر من الأعمال الدقيقة التي تحرك فيها أصابعك ويديك وعينيك على نحو ليس منه شيء يحصل لديك الوعي بأنك تريده بخصوصه قبل أن تفعله! فأنا يقينا أختار أن أضرب بأصبعي حرف الباء – مثلا - مرارا وتكرارا حتى أكتب كثيرا من الكلمات التي أكتبها الآن، ولكن على تعريف "الوعي Consciousness "عند الطبيعيين، هل يعتبر ضربي لحرف الباء من جانبي حال الكتابة في كل مرة أضربه، فعلا اختياريا أم غير اختياري؟؟ إذا عرفنا الإرادة Will ذلك التعريف الاختزالي السخيف الذي ارتضاه الدحيح مقلدا فيه التجريبيين الدهرية تقليدا محضا، على أنها حصول "الوعي" الظاهر بالرغبة في الفعل، لم يصح أن يقال في شيء من تلك الأفعال الدقيقة التي تجري على أصابعي الآن وأنا أكتب هذا الكلام، أنها أفعال اختيارية، أفعلها باختياري الحر! وهذا كلام فارغ كما لا يخفى!

فيجب أن يفهم القارئ المحترم أن قضية التعريفات هذه قضية بالغة الخطورة ولا يجوز التهاون فيها، لا سيما عند الكلام عن مسائل الاعتقاد وما يتعلق به!! وحسبك أن تعلم أن أئمة السنة كالأوزاعي وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري والزبيدي وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهم بدعوا من أطلق الحكم بنفي الجبر من غير تفصيل كما بدعوا من أطلق الحكم بإثباته! قال الإمام أحمد رحمه الله: "من قال جبر فقد أخطأ ومن قال لم يجبر فقد أخطأ، بل يقال إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ونحو ذلك" اهـ. فلماذا بدعوا من ينفي بإجمال كما بدعوا من يثبت بإجمال؟ لأن الذي ينفي اللفظ المجمل (جبر) من غير أن يفصل المعنى المنفي تفصيلا واضحا لا لبس فيه، هذا لا يسلم من أن يكون قد نفى القدر نفسه، كما يفهمه من يحمل لفظة الجبر على أن المراد بها خلق الله تعالى أفعال العباد وإراداتهم في نفوسهم، وخلق جميع ما يتقدمها من أسباب ومقدمات ! وقد وقع المتكلمون في حيص بيص في تلك المسألة بسبب الإجمال، حتى قال الرازي إن مذهب الأشاعرة هو "الجبر المتوسط"! على أساس أنهم أثبتوا خلق أفعال العباد،

ونفوا كون إرادة العبد تؤثر فيها سببيا، فوافقوا الجبرية في ذلك، ثم تفلسفوا في محاولة الخروج من ذلك المأزق بشيء بدعوه وسموه "بالكسب"، فقالوا إن الإنسان لا يفعل شيئا على الحقيقة ولا يؤثر في شيء، وإرادته لا علاقة لها بحصول الحوادث في الخارج، ولكنه مع ذلك "يكسب" موجبات الثواب والعقاب بمجرد حصول الإرادة في نفسه عند حدوث الفعل! وهذا تناقض ولا شك، ولكن القصد أنه عندما يثبت الأشعري جبرا يسميه بالمتوسط، فلا ينبغي أن نرد عليه حتى نطالبه ببيان تعريفه لما يثبت! وحينئذ يكتمل لدينا تصور المذهب ويكون الحكم عليه متوجها إلى محله الصحيح !

ولهذا أنكر أهل العلم على من يطرح هذا السؤال نفسه بهذه الألفاظ: "هل الإنسان مخير أم مسير؟"! لأنه إن كان المقصود بالتسيير خلق أفعال العباد، كان نفيه نفيا للقدر! وإن كان المقصود بالتسيير نفي حصول الاختيار الحر في نفس العبد المكلف، كان نفيه هو الحق الذي يجب المصير إليه! وإن كان المقصود بالتخيير حصول الخيار الواعي الحر في نفس الإنسان، كان نفيه قولا بالجبر، وإن كان المقصود خلق العباد أفعالهم على عقيدة المعتزلة، كان إثباته نفيا للقدر وشركا بالله تعالى، نسأل الله السلامة! وكما لا يخفى فلا يلزم أن يكون التعريف مفضيا بالضرورة إلى إحدى الخصلتين: نفي التسيير وإثبات التخيير، أو إثبات التسيير ونفي التخيير! ومع ذلك فالسؤال مصوغ على نحو يلزم المجيب بأحد الوجهين وكأن الحق لا يجاوزهما! فهو سؤال فاسد من أصل الطرح عند التدبر! ومع ذلك يتلاعب به هذا التافه في مستهل الحلقة وفي مختتمها، وكأن دين المسلمين لعب وهزل لا فرق فيه بين جواب وجواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

خلاصة الرد، أن هذا الرجل ليس داعية علم، وإنما هو داعية اعتقاد دهري طبيعي Naturalist Doctrine، مما يلبس بلبوس العلم Science ، ويروج بين العوام على هذا الأساس، كما هو الشأن في عامة من يقال لهم مروجي العلوم Science Popularizers في بلاد الغرب، والله المستعان!

ومن التلبيس أن يلقب الرجل نفسه "بالدحيح" وهي كلمة تطلق في لسان العامة من شباب المسلمين في مصر على الشاب المجتهد في الدراسة والمذاكرة، وكأنه لا يحصل العلم (على أثر المذاكرة و"الدح") لأحدهم إلا أوصله إلى نظير ما وصل إليه هذا السفيه من اعتقادات وأوهام! فالواجب على كل مسلم عاقل أن يتقي الله في دينه وعقله، وألا يعرض نفسه لبضاعة ذلك المجرم التافه، الذي لا يبالي على أي ملة وعلى أي اعتقاد يترك متابعيه، المهم أن يمضي في تمهيدهم لنظام اعتقادي طبيعي صرف يراد إشرابهم

به وإشباعهم من حيث لا يشعرون! فالله أسأل أن يعامله بعدله، وأن يصرف عنا ضلاله هو وأمثاله بما شاء كيف شاء، إنه على كل شيء قدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والحمد لله أولا وآخرا.

وكتب
أبو الفداء بن مسعود

غفر الله له ولوالديه ولأهله وللمسلمين